(( قطوف من عبادة السلف ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

الأولى

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله أحق من شكر، وأولى من حمد، وأكرم من تفضل، وأرحم من قصد، وأحق من عبد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا معبود بحق إلا هو، الخلق خلقه، والبلاد بلاده، والعباد عباده، والملك ملكه، والأمر أمره، والسلطان سلطانه، وهو الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ربنا كفانا عزاً أن تكون لنا رباً وكفانا فخرً أن نكون لك عبيداً

وأشهد أن نبينا وسيدنا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. أما بعد :

فيا معاشر المؤمنين أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ..

ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﭼ لقمان: ٣٣

الأَمرُ جِدُّ وهـو غيـرُ مُـــزاحِ فاعمَلْ لنفسِكَ صالحاً ياصــاحِ

الدهـــرُ أنصحُ واعظٍ يعِظُ الفتى ويزيدُ فوقَ نصيحةِ النُّصّــــاحِ

تجري بنا الدُّنيا على خَطـرٍ كمـا تجري عليـهِ سفينةُ الملاّحِ

شَغَلَ البـريّةَ عـن عِبـادةِ ربِّهـم فِتنٌ على دنيا همُو تَلاحي

كـلُّ البريّةِ شاربٌ كـأس الرّدى مِنْ حَتْفِ أنفٍ أو دمٍ سَفَّاحِ

خرج النبي وأصحابه إلى تبوك وحض أهل الغنى على النفقة في سبيل الله وتنافست النخبة المصطفاه في البذل والعطاء، وجهّز عثمان بن عفان جيش العسرة حتى قال: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مرَّتَيْنِ . رواه الترمذي وصححه الألباني في المشكاة رقم 6073 .

وجاء سبعة نفر إلى النبي وهو متّجه إلى تبوك لمقاتلة الروم جاءوا يعرضون على رسول الله أنفسهم ودماءهم، وهم يقولون بلغة الصدق والإيمان: يا رسول الله أحملنا معك، أحملنا معك إلى هذه المعركة، نحن لا نملك مالاً ولا مركباً لكننا نملك أغلى من ذلك كله، نملك الدم والروح وسنبذله في سبيل الله أحملنا معك، وكان الجواب شديداً على قلوبهم لا أجد ما أحملكم عليه، كلمة صدمت آمالهم وبددت أحلامهم، لا أجد ما أحملكم عليه، فرجعوا رجعوا بنفوس كسيرة، رجعوا بقلوب ذليلة وأعين باكية تفيض من الدمع حزناً، حزناً أن الدم لم يسفك، والبدن لم يمزق، حزناً أن الروح لم تزهق، حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ويأبى الله إلا أن يسطر هذا المشهد في كتابه فجاءت تحيتهم من السلام :

ﭽ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﭼ التوبة: ٩٢

وحفظت السنة ثوابهم فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ» رواه البخاري رقم 4423.

الغصص انعقدت في الحلق والدمع يفيض من العين لا لأن حظاً من الدنيا فات ولا لأن قريبا أو حبيباً مات ولكنه تنافس في ميدان العبادة والطاعة سباق وبكاء لكنه في ميدان العطاء والبذل مسارعة لكنها إلى جنة عرضها السماوات والأرض فتعال معي أخي الصائم لنقف في عجالة على صفحة مشرقة وحياة رائعة من تنافس وجدّ أولياء الله المقرّبين وعباد الله الصالحين في ميدان التزلّف لله بالعبادة والطاعة .

تعال معي لنقف مع لمُع من حياة السلف الصالح، مع رجال يتعطر التاريخ بذكرهم، وتحيا القلوب بذكرهم، مع أقوام أحسنوا صلتهم بربهم، فذاقوا لذة العبادة حتى غدت العبادة ولذّتها جنّةً يتنعّمون فيها.

وما هذه النماذج العطرة إلّا هدياً مقتبساً من سيد ولد آدم ، وأعظم عبد عرف ربه فقد تحولت كل ذرة في كيانه إلى عبادة وقربة، فقرأ القرآن حتى سار له خلقا، وقام الليل حتّى تورمت قدماه من طول تهجّده، وبكى حتى سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، تأمّل هذا الموقف يقول عبيد ابن عُمَيْرٍ: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رسُولِ اللَّهِ ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... }» الْآيَةَ كُلَّهَا [آل عمران: 190]. رواه ابن حبان وصححه الألباني في الترغيب والترهيب 1468 .

فبعبادته تأثروا، وبروحانيته استناروا، فهذا حمّاد بن سلمة بن دينار عالم رباني عرف عنه مع سعة علمه وسعة روايته كثرة التأله والتعبد والمناجاة لله عز وجل والمكث في المسجد والجد في اغتنام الوقت فوُصف فقال واصفوه :(لو قيل له إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنَّ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً. استغرق يومه وليله عباده، فلو رأى رسول الموت لم يكن في وقته متسع لمزيد طاعته.

قال الذهبي رحمه الله : كَانَتْ أَوْقَاتُهُ مَعْمُوْرَةً بِالتَّعَبُّدِ وَالأَوْرَادِ ومات في المسجد مصليا.

سير أعلام النبلاء (7/108).

وهذا الإمام العالم الأحنف ابن قيس فقد كان كثير الصوم والعبادة مع كبر سنّه وضعف بدنه فقيل له في ذلك فقال إنّي أعدّه لسفرٍ طويل، وقال واصفوه: كَانَتْ عَامَّةُ صَلاَةِ الأَحْنَفِ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ يَضَعُ أُصْبُعَهُ عَلَى المِصْبَاحِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: حَسِّ. وَيَقُوْلُ: مَا حَمَلَكَ يَا أَحْنَفُ عَلَى أَنْ صَنَعْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا. سير أعلام النبلاء (4/92).

وهذا الربيع ابن خثيم يقول عنه عبدالرحمن ابن عجلان: بتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلّي فمرّ بهذه الآية ﭽ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﭼ الجاثية: ٢١

فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوزها يبكي بكاءً شديداً

وهذا عطاء بن أبي رباح مفتي الحرم وشيخ الإسلام عالم جليل قال عنه ابْنِ جُرَيْجٍ: لَزِمْتُ عَطَاءً ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ بَعْدَ مَا كَبُرَ وَضَعُفَ يَقُوْمُ إِلَى الصَّلاَةِ، فَيَقْرَأُ مائَتَيْ آيَةٍ مِنَ البَقَرَةِ وَهُوَ قَائِمٌ، لاَ يَزُوْلُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلاَ يَتَحَرَّكُ.

أما أبو إسحاق السبيعي وهو جبل علم وتقوى، فلما كبر سنه وضعف كان ينادي الشباب فيقول: يا معشر الشباب اغتنموا قوتكم وشبابكم لقد ذهبت الصلاة مني وضعفت ورق عظمي.

فيا ترى ما الذب بلغ من ضعفه ؟

بعدما كبر سنه وضعف بدنه يقول رحمه الله : فما أقرأ وأنا قائم إلا بالبقرة وآل عمران.

ضعفت فما أقرأ وأنا قائم إلا بالبقرة وآل عمران، وأن الإنسان ليعجب إذا هذا كان حاله لما كبر سنه ورق عظمه فكيف كان حاله في الشباب؟

شيخ واهن ، ضعيف الجسد ، عليل البدن يقرأ بالبقرة وآل عمران في ركعة، ولك أن تقارن أولئك بحالنا اليوم ونحن نتملل من صلاة الفريضة ونراوح بين أقدامنا في ركعات التراويح، ويعجب أحدنا بنفسه إذا أحيا ليله من ليالي رمضان، وأبو إسحاق السبيعي يحزن على نفسه ويندبها فهو لا يطيق الوقوف إلا بالبقرة وآل عمران.

وهذا مسلم الخولاني بلغ الغاية القصوى في عبادة ربه حتى قال يرحمه الله :لو قيل لي أن جهنم تسعر ما استطعت أن أزيد في عملي كان يصلي في اليوم ثلاثمائة ركعة.

ويقول : ((لو رأيت الجنة عياناً أو النّار عياناً ما عندي مستزاد)).

وهذا الإمام المبارك عبدالله بن المبارك فمع سعة علمه وإمامته في الحديث والرواية كان رجلاً عابداً ربانيا لا يدع لحظة تفوت دون أن يعمرها بطاعة ربه فقد عبدالله في ماله وأنفقه في سبيل الله، وعبَدَ الله في جسمه فجاهد لإعلاء كلمة الله، وعبَدَ الله في علمه فنشره بين الناس، وعبَدَ الله في نهاره فصامه، وعبَدَ الله في ليله فقامه، قال عنه نعيم بن حماد : ما رأيت أكثر اجتهاداً منه في العبادة ، يقول محمد بن أعين : وكان صاحبه في الأسفار وكريما عليه، قال كنت مع عبدالله بن المبارك ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام فأمسكت برمحي في يدي وقبضت عليه ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام فلما ظن إني قد نمت فقام فأخذ في صلاته فلم يزل يصلي حتى طلع الفجر وأنا أرمقه فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظن إني نائم وقال يا محمد فقلت إني لم أنم قال فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينبسط الي في شئ من غزاته كلها كأنه لم يعجبه ذاك مني لما فطنت له من العمل فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ولم أر رجلا قط أسر بالخير منه. الجرح والتعديل(1/267) .

وهذا أبو بَكْر بْن عياش لما حضرته الوفاة بكت أخته، فقال لَهَا: ما يُبكيك؟

انظري إلى تِلْكَ الزاوية التي فِي البيت، قد خَتم أخوك فِي هذه الزاوية ثَمان عشرة ألف ختمة. وقال عنه الذهبي في السير : (رُوِيَ مِنْ وُجُوْهٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بنَ عَيَّاشٍ مَكَثَ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً يَخْتِمُ القُرْآنَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَرَّةً) قال الذهبي معلقاً: وَهَذِهِ عِبَادَةٌ يُخْضَعُ لَهَا. ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ الأنبياء: ٧٣

الثانية

معاشر الصائمين ، إن العبادة عند أولئك العظماء الأتقياء ليست محطة استراحة في حياتهم، ولا دورة خاطفة بل هي غايةٌ وجنّةٌ يتنعّمون بها في الدنيا؛ فأخذت العبادة بشبابهم وقوتهم وصحتهم وزهرة أعمارهم، فإذا كبروا وضعفوا وعجزوا تحسروا على أنهم عجزوا عن عبادات كانوا يؤدونها ويقيمونها وقت شبابهم.

إن هؤلاء بشرٌ مثلنا ليسوا بجمادات نزعت منهم الرغبات، وليسوا بملائكة نزعت منهم الشهوات، بشر مثلنا يحبون النوم كما نحب ويحبون المال كما نحب ولكنك إذا رفعت بصرك إلى جدهم واجتهادهم في العبادة رأيت عجبا، بل يقول الفضيل بن عياض: ((أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا يَسْتَحْيونَ مِنَ اللَّهِ سَوَّادَ اللَّيْلِ مِنْ طُولِ الْهَجْعَةِ , إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْجَنْبِ , فَإِذَا تَحَرَّكَ ، قَالَ : لَيْسَ هَذَا لَكِ قُومِي خُذِي حَظَّكَ مِنَ الآخِرَةِ)).

قارن ذلك بصور نراها ونحياها اليوم، يوم ترى رجلاً مضى من حياته نصف قرن خلط فيها عملا صالحاً وآخر سيئاً فما زادته السنون إلا حرصاً على الدنيا وعجزاً وضعفاً في عبادة ربه، فإذا هو بعد الخمسين من عمره يقضي ليله في لعب الورق ومتابعة الكرة ويسابق إلى عادات وألفاظ محرمة ، قارن هذا بشاب يتقلّب في نعمة الأمن والرخاء قد استعبدته شهوته ونفسه فغدا في مثل هذه الأيام والليالي المباركات محروما رقيقاً لشهوته وهواه

أعد النظر كرة أخرى في رحلة مع ذلك الركب المبارك، فهذا مسروق بن الأجدع ذاك الذي صام في يوم صائف صام في يوم حار فشق عليه الصوم حتى غشيَ عليه فلما أفاق جلست اليه ابنته تقول له: يا أبت ألا تفطر أما شق عليك الصوم فما زالت به حتى قال لها: يا بنية وماذا تريدين من ذلك؟ قالت: الرفق بك، قال: يابنيتي أني أطلب الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

لقد عبد أولئك الله حتى لكأن النار لم تخلق إلا لهم، فإذا هم ينظرون إلى الدنيا أنها ميدان سباق ومطيّة إلى الآخرة

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه .

وبعد هذا كله حبذا لو سأل كل واحد منا نفسه

أين نحن من هؤلاء ؟ أين نحن من هؤلاء ؟

قارن حالك بحالهم، قارن اهتماماتهم باهتماماتنا، قارن اجتهادهم باجتهادنا، وتذكر أن الله عز وجل يقول: ﭽ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ الإسراء: ١٩

تذكر أن الله عز وجل يقول: ﭽ ﮬ ﮭﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﭼ المائدة: ٤٨

وهذه دعوة من الكبير المتعال إلى ميدان السباق الحقيقي، سباق إلى الدار الآخرة .

عبدالله تذكر أنك في أولى ليالي العشر الأواخر من رمضان

تذكّر أنك في ليالي الجدّ والإجتهاد ؟

تذكّر أنّك في ليالي الفراق والوداع ، ليالي العطاء والدعاء والنداء والبكاء

تذكّر أنّ صاحب الشفاعة العظمى واللواء المحمود ومن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد بذل الغالي والنفيس في هذه العشر ، أحيا ليلها وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر واعتكف ولزم المسجد في العشر الأواخر.

أليس من الغفلة والحرمان العظيم أن تنقضي هذه الليالي العظيمة ونحن في غفلة وخداع للنفس، تذكّر أنّك من جيران المسجد الحرام والبيت العتيق فيا ساكن الحرم ويا زائر البيت العتيق اغتنم حياتك قبل موتك وشبابك قبل هرمك

فإلى الرجال وإلى الرجال أقول .. وإلى النساء أقول وإلى النساء أقول ..

وإلى الشباب أقول وإلى الشباب أقول .. وإلى سكان وزوّار البيت الحرام أقول ..

هذه ليالي العشر ليالي الخيرات والبركات .. ليالي الخلوة والذكر وسكب العبرات

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ» .

والحياة فرصة، والعمر واحد فإذا عزمت فبادر وإذا هممت فثابر ولا يدرك المفاخر من رضي بالصنف الآخر .

إذا أنْتَ لمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التّقَى وَلاقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَن قد تزَوّدَا

نَدِمْتَ على أنْ لا تَكُونَ كمِثْلِهِ وأنكَ لمْ ترصدْ لما كانَ أرصدا